

صحيح أن المراجع العربية والاجنبية - رغم قلتها - قد تم ذكرها في نهاية الكتاب الا اني ارى ضرورة تحديد موقع كل مصدر داخل النص، كما اعتقد بأهمية عودة الكاتب الى الادبيات الأساسية في الموضوعات التي تطرق لها، مثل التبعية والوعي والاعتراب وغيرها من المصطلحات ذات الأهمية البالغة في العلوم الاجتماعية.

The Soviet Union and Arab Nationalism 1917 - 1966 الاتحاد السوفياتي والقومية العربية 1917 - 1966

Hashim S.H. Behbehani

هاشم بهبهاني

ل.ك.ب. أي. ، لندن 1986 ، 252 ص .

مراجعة: سامي الرباع

كلية الدراسات العليا - جامعة الكويت

يقع الكتاب في عشرة فصول تعج بالحقائق والتفاصيل المسلسلة تاريخيا، يتخللها العديد من النتائج التحليلية الجديدة على الساحة التحليلية العربية والدولية، تقوم على الحقائق والوقائع التاريخية الموضوعية. الا أن اهم فصول الكتاب هو الفصل الاول، ففيه يتعرض المؤلف بشكل رئيسي لجذور الحركة الصهيونية في روسيا القيصرية وكيف كان لتحركاتها اكبر الاثر على قيام الدولة الاسرائيلية واعتراف السوفييت بها فيما بعد وتغلغلهم في المنطقة العربية.

فقبل ثورة اكتوبر، وقبل هجرة الاعداد الكبيرة من يهود روسيا ويهود اوربا الشرقية الى فلسطين، وقبل تأسيس الكيان الاسرائيلي عام 1948 كانت هناك جذور ايديولوجية عميقة ومتشعبة لهذا التأسيس في الفكر الروسي ومصالح مشتركة بين القياصرة الروس والقادة اليهود. ويتتبع المؤلف تاريخ تأسيس الحركة الصهيونية في الاتحاد السوفيتي ويقول ان المفكرين السوفييت كانوا يميلون الى الاعتقاد بأن الصهيونية عبارة عن تجسيد وتعبير لتطلعات البرجوازية اليهودية. لقد أوجدت البرجوازية اليهودية الحركة الصهيونية لتخلق لنفسها «هدفا تاريخيا» كما يعتقد العديدون من المفكرين السوفييت بأن الصهيونية قد زودت البرجوازية اليهودية بـ «منارة روحية».

وقد ازدادت النشاطات الصهيونية وبشكل ملموس في روسيا القيصرية عام 1883 حيث تشكلت هناك لجنة مركزية كجزء مما كان يسمى بالدولية المتحدة الاسرائيلية التي كان لها فروع في

العديد من الدول الأوروبية وخاصة في ألمانيا والنمسا. وتركزت نشاطات اللجنة المركزية التي كانت تعمل بالسر على جمع الشمل السياسي والديني لليهود من الذين يشعرون بالاغتراب في روسيا. ولم تهتم «العالمية المتحدة الاسرائيلية» قطعا بالصراع الطبقي ولم تدع الى خوضه، بل كانت تعمل على جمع المال من الجماهير اليهودية وغيرها لتمويل نشاطات البرجوازية اليهودية التي مهدت بالاصل لقيام الحركة الصهيونية. وانهضت البرجوازية اليهودية في شراء المصانع وتأسيس المؤسسات التجارية وبذلك تراكمت لديها رؤوس اموال طائلة. وفي مطلع القرن العشرين تبوءت البرجوازية اليهودية مكانا مرموقا في الحياة الاقتصادية الروسية ولم تتوان عن استغلال القوى العاملة اليهودية الكادحة للحفاظ على مكانتها الاقتصادية وتعزيز نشاطاتها السياسية. ويقول المؤلف ان تراكم الثروة لدى البرجوازية اليهودية والسياسة القيصريّة الروسية المعادية للسامية حثت هذه البرجوازية على المضي قدما في العمل لتشكيل الحركة الصهيونية وتقوية اسسها.

ومن الدلائل التاريخية التي تشير الى عنصرية وشوفينية الحركة الصهيونية هو تأسيس اتحاد القوى العاملة اليهودية في روسيا القيصريّة عام 1797 تحت اسم اتحاد Bund، واقتصرت العضوية فيه على العمال اليهود. وقد حاول لينين ضم هذه الحركة أو بعض اعضائها الى الحزب البلشفي، إلا أنه فشل في ذلك. والسبب يعود الى رفض الحركة الصهيونية للتطلعات والاهداف البلشفية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وعلى رأسها الصراع الطبقي وتحرير الطبقة العاملة من الاستغلال. لقد كانت للصهيونية تطلعات سياسية اخرى تتمثل في الدعوة الى قيام كيان وطني يهودي يخدم بالدرجة الاولى مصالح واهداف البرجوازية اليهودية. اضيف الى ذلك ان الصهاينة الروس كانوا يفصلون بحدّة ويميزون بين الجماهير العمالية اليهودية والطبقات العمالية الكادحة الاخرى في المجتمع من غير اليهودية.

ولم يكن في يوم من الايام محظورا على الحركة الصهيونية العمل والنشاط بينما كان البلشفيون يتعرضون للاضطهاد والسجن. ومن هنا يعتقد العديد من المؤرخين السياسيين على أنه كان هناك وفاق تام بين الحركة الصهيونية والسلطة القيصريّة الروسية. لذلك شهدت روسيا بين 1897-1903 توسعا ملحوظا لنشاطات الحركة الصهيونية. ففي عام 1901 عقد في مدينة بريتسبورغ اجتماع للجنة المركزية للحركة الصهيونية وضعت خلاله الأسس «الثقافية» للحركة الصهيونية. ومنذ ذلك الحين توسعت الحركة وانتشرت في معظم انحاء الامبراطورية القيصريّة. وفي عام 1903 وصل تيودور هيرتزل الى بريتسبورغ واجتمع مع وزير الداخلية الروسي واتفقا على السماح للحركة الصهيونية بالعمل السياسي في روسيا والسماح لليهود بالهجرة الى فلسطين مقابل امتناع اليهود الروس عن مهاجمة أو معاداة الحكم القيصري أو تبني الافكار الاشتراكية!.

اما في فصول الكتاب الاخرى فيتعرض المؤلف للظروف التاريخية، ملاساتها، ومعطياتها، وتفسيرات بعض القادة والمفكرين السوفييت للواقع السياسي والمادي في الشرق، وخاصة ذات

الصلة بالشرق الاوسط العربي والدوافع وراء اهتمام الاتحاد السوفيتي بالمنطقة العربية وضرورة التغلغل فيها.

ويعود اهتمام السوفييت بالمنطقة العربية الى بداية الثورة البلشفية، فمنذ ثورة اكتوبر عام 1917 شعر السوفييت من خلال الشعار الماركسي - اللينيني الداعي الى تحرير القوى العاملة في العالم من الاضطهاد والاستغلال (ص / 31) انه لا بد من تحرير العالم العربي من الاستعمارين البريطاني والفرنسي كقوى مستغلة للكادحين العرب. الا أن مجتمعات هذا العالم، وكمجتمعات زراعية اقطاعية، كانت تفتقر للطبقة البروليتارية، بمعناها الصناعي، وذلك حتى تتحقق الثورة وفقا للمعادلة الماركسية - اللينينية.

فلا الجماهير العربية الفلاحية، ولا الاحزاب الشيوعية القائمة آنذاك في بعض الدول العربية، والتي كانت ذات اهمية لا تذكر، كانت قادرة على خلق الثورة. وقد اكد لينين والقيادات السوفييتية التي جاءت بعده على ضرورة العمل على مساعدة العرب بكافة السبل المادية والسياسية (ص 33) لتحرير أنفسهم وذلك بموازرة كافة القوى البروليتارية العالمية، وسيسهل تحقيق ذلك من خلال الوجود الشيوعي في المنطقة العربية. ويبرز المؤلف من خلال عاملين رئيسيين كيف تمكن السوفييت من دخول العالم العربي والتأثير على مجرى الاحداث فيه:

أولاً - بعد خروج الاتحاد السوفيتي من الحرب العالمية الثانية كقوة دولية تضاهي فرنسا وبريطانيا، وهما الدولتان المتقاسمتان للعالم العربي، الذي وجد ان من واجبه الايديولوجي دعم حركات التحرر في العالم ومساعدة الجماهير الكادحة لنيل حقوقها والتخلص من براثن الاستغلال بكافة اشكاله.

ثانياً - العنصر اليهودي: ان تعرض يهود اوروبا للاضطهاد النازي، والتحركات الصهيونية المكثفة اقنعت السوفييت بضرورة دعم الحركة اليهودية وفكرة انشاء دولة يهودية على (أرض الميعاد). ولماذا لا والحركة الصهيونية كانت تدعي تمسكها بالاشتراكية؟ علماً بأن لينين وستالين وغيرهما من المفكرين السوفييت ادانا الحركة الصهيونية على أنها حركة تقوم على ايديولوجية رجعية تخدم مصالح البرجوازية اليهودية وتهدف الى فصل الجماهير اليهودية الكادحة عن الحركة البروليتارية الدولية (ص 54). الا ان الذي رجح كفة دعم الحركة اليهودية هو قناعة السوفييت بأن الكادحين من اليهود، ومعظمهم هاجروا الى فلسطين من الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية يحملون الفكر الاشتراكي (ص 73)، وسيقفون ضد المستعمر البريطاني في فلسطين وسيطردونه من المنطقة وسيقومون دولة اشتراكية حليفة للاتحاد السوفيتي (ص 54).

لذلك لم يتوان الاتحاد السوفيتي وحلفاؤه عن المساعدة والمساهمة في قيام الدولة اليهودية والاعتراف بها. وحين تم التصويت في الامم المتحدة على قرار التقسيم في 29 نوفمبر عام 1947 كان السوفييت أول من دعم القرار بحجة ان ذلك سيرضي الطرفين، العرب واليهود، ويحقق آمالهم (ص 56)، فضلاً عن ان السوفييت كانوا ينادون الجماهير الكادحة العربية واليهودية لدحر الامبرياليين البريطانيين وطردهم من فلسطين. ومن هنا انطلق تاريخ السياسة المزدوجة للسوفييت

الخاصة بالصراع العربي - الاسرائيلي . أضيف الى ذلك أن القضية الفلسطينية لم تحتل آنذاك مكانة بارزة في السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي . تماما بعكس المسألة اليهودية التي شغلت تفكير السوفيت طويلا لا سيما ان اليهود يشكلون جزءا كبيرا من ضحايا العدوان النازي اثناء الحرب العالمية الثانية .

أضيف الى ذلك ان فكرة القومية العربية بالنسبة للسوفيت كانت عبارة عن فكرة غامضة وشكل بدون مضمون عملي ، ولم يكن للاتحاد السوفيتي أية علاقات مع أية دولة عربية ، فقد كانت جميعها تحت السيطرة الغربية ، وان ايجاد اسرائيل سيوفر فرصة لاختراق المنطقة واقامة علاقات مع البلدان العربية ، خاصة ان اسرائيل هي الدولة الوحيدة في المنطقة التي سمحت للحزب الشيوعي بالعمل فيها بشكل شرعي (ص 71) . ويؤكد المؤلف ان قيام دولة اسرائيل واعتراف الاتحاد السوفيتي بها قد منح السوفيت فرصة ذهبية لدخول المنطقة العربية والقيام بالدور الذي يتفق مع اهدافهم السياسية والاقتصادية بالإضافة الى دورهم على الساحة الدولية . ويرى المؤلف ان السوفيت اعتمدوا في تحليلهم للواقع في المنطقة العربية على قوالب نظرية ماركسية لينينية جامدة . فقد اعتقدوا بأن الجماهير الكادحة العربية واليهودية ستعمل جنبا الى جنب على تحرير فلسطين من الاستعمار البريطاني ولم يدخلوا في حساباتهم الدور الذي يمكن للجيش العربي ان يلعبه في المنطقة .

وخلافا للحسابات السوفيتية فقد أدى ازدياد حدة الصراع العربي - الاسرائيلي الى قيام الثورة في مصر عام 1952 ، التي جاءت ايضا لتحرير مصر من الاستعمار البريطاني واجراء بعض الاصلاحات السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ويخلص المؤلف الى القول بأن قيام ثورة اكتوبر عام 1952 قد عزز مكانة الوجود السوفيتي في المنطقة ، فقد كانت فرصة للتخلص من الاستعمار البريطاني ، وفرصة لرش بذور الاشتراكية في مصر واعادة بناء اقتصادها على أسس اشتراكية .

من جهة اخرى ، وجد عبدالناصر في الاتحاد السوفيتي الحليف الامثل لتثبيت دعائم الثورة وصدد المعتدين ، وقد اثبت الاتحاد السوفيتي ذلك في حرب السويس من خلال مساعداته الاقتصادية والعسكرية لمصر . وعلى اثر ذلك وبمبادرة من عبدالناصر ازدادت اهمية الاتحاد السوفيتي في المشرق العربي وفي العديد من دول العالم الثالث ، وخاصة حين تم تشكيل حركة عدم الانحياز حيث اعتبر الاتحاد السوفيتي الحليف الطبيعي لدولها . ويؤكد المؤلف على أنه منذ ان اعترف الاتحاد السوفيتي بالوجود الاسرائيلي رسميا ، وقع القادة السوفيت بين فكي كماشة المعضلة المتمثلة في اقامة دولة اسرائيلية من جهة وخلق القضية الفلسطينية من جهة أخرى ، ولم يفلح السوفيت حتى الآن في حل هذه المعضلة ! .

وقد زاد في حدة المعضلة تغيير موازين القوى الدولية ، الحرب الباردة ، وتحالفات القوى الكبرى ، ولكن الى درجة اكبر ، تولى عبدالناصر القيادة في مصر . فعلى اثر ذلك ازداد ارتباط الاتحاد السوفيتي بالعالم العربي . وقد مهد لذلك وسهل تحقيقه مواقف عبدالناصر القومية وشدة معارضته للقوى الاستعمارية الغربية . ولكن حلول الاتحاد السوفيتي مكان القوى الغربية في

اجزاء من الوطن العربي، وخاصة في مصر، كمزود لأنواع مختلفة من المساعدات فرض على موسكو ضرورة الاختيار بين دعم العرب أو اليهود في الاراضي المحتلة، والذي زاد من حدة هذه المعضلة هو ظهور منظمة التحرير الفلسطينية على الساحة كقوة لا يمكن تجاهلها. وعلى الرغم من قطع الاتحاد السوفييتي علاقاته مع الكيان الاسرائيلي خلال فترات مختلفة، الا أنه لم يصل بعد الى قرار حاسم بشأن ولائه في الصراع العربي - الاسرائيلي.

يعتبر هذا الكتاب بحق مرجعا اساسيا للمحللين السياسيين والتاريخيين وازضافة جوهرية للمراجع التي تبحث في العلاقات العربية - السوفييتية، وخاصة الدور التاريخي الذي لعبه الاتحاد السوفييتي وحلفاؤه في دعم قيام الدولة الاسرائيلية والدوافع السياسية والايدولوجية وراء ذلك. ولا يفوتنا ان نشير الى ان الكتاب كُتِبَ بأسلوب علمي هادئ بعيد عن المهاترات والحماسة اللغوية العاطفية التي تتميز بها بعض التحاليل السياسية والتاريخية في الشرق والغرب. لقد توخى المؤلف الموضوعية في طرحه واعتمد في تحليله على الوثائق والحقائق التاريخية المتوفرة في كلا العالمين العربي والسوفييتي.

لذلك ننصح كل من يهتم بتاريخ القضية العربية وحاضرها بالرجوع الى الكتاب والاطلاع عليه. ففهم الحاضر يتطلب تحليلا وتفسيرا موضوعيا لمجرى الاحداث التاريخية، وكثير من المعطيات والتطورات المعاصرة لا تزال تستمد دوافعها من قرارات اتخذت في الماضي ومن وقائع حدثت تحت تأثير ظروف وملابسات تاريخية معينة.

الديمقراطية ونظام 23 يوليو

طارق البشري

مؤسسة الابحاث العربية، بيروت، 1987، 294 ص.

مراجعة: جورج المصري

شبرا - مصر

ليس من الجديد القول ان الديمقراطية هي احدى القضايا الهامة التي تشغل المواطن العربي وإن كانت التجربة الناصرية قد شكلت ملامح جديدة للتعبئة السياسية والمشروع القومي الوحدوي، فإن أعداءها كثيراً ما يأخذون عليها إهدار كرامة الانسان وغيبة الديمقراطية السياسية